المصر بأيدى هذه الطغمات وأشباهها، وأن هذا الذى نستنكره اليوم سيصبح إذا سكتنا عليه، عادة تعد المجادلة فيها ضرباً من الأفن. وفكرت أن مس إيجبت هذه ستذهب إلى أوربا باسم مصر، وتشارك فى سوق الرقيق هناك، وتبوء مصر بكل ما فى ذلك من عار وحماقة. فرأيت أن الأمر جدير بالاهتمام، وأنه إن سكت عنه عقلاء الأمة صار سنة، وظن المفسدون، كما تسوّل لهم مآربهم، أنها سُنة حسنة ينبغى ألا تحرم منها مدينة أو قرية،

وقد وفدت على مصر من قبل ملكة الجمال فى تركيا فلم يستح بعض الوقحين من طلبة الجامعة أن يقترحوا أن يحتفل بها فى نادى الجامعة. مَن مُبلغ عنا هـذه الفتاة، أنا لا نعرفها ولا نعرف جمالها ولا ملكها، وأن القحة البليغة أن تذهب إلى أوربا مدعية أن مصر أرسلتها، ومصر بريئة منها وممن يرسلونها. ليت شعرى أرضى المصريون: الحكومة والأمة بهذه السبة. هل رضوا أن تنوب عنهم على رغم أنوفهم فتاة تذهب إلى بروكسل زاعمة أن مصر أرسلتها

كنت أحسب أن موقف مصر الحاضر بين دولة مستعبدة، ودولة مهددة سيخرج بطلاً أو بطلة، تهيب بالمصريين ليغسلوا العار، ويحموا الديار، أو ترسل وفداً يدفع عن حقوق مصر عند عصبة الأمم؛ فاذا السفهاء فى شغل عما يحيط بهم باختيار امرأة يرسلونها إلى بروكسل!

وقد أجاب أهل دمشق داعى العروبة والكرامة والفضيلة، فاجتمعوا حين سمعوا أن امرأة ستذهب إلى سوق الرقيق باسم سورية، واستنكروا ذلك، وأجمعوا على مطالبة الحكومة بأخذ الطريق على هذه السنة السيئة، فأجابت الحكومة دعوة العقلاء ومنعت اجتماع السفهاء لاختيار ملكة للجمال، وفى ذلك للمصريين وغيرهم أسوة حسنة

سيقول السفهاء: جماعة لا يعرفون الجمال، ولا يقدرونه، ولا يميزون الحسن من القبيح، فهم ساخطون ثائرون. والله يعلم أن الجمال يُعبِّدُ قلوبنا، ويملك مشاعرنا، وتهفو اليه أفئدتنا حيثما تجلى فى السماء أو فى الأرض، ولكننا لا نعرف الجمال فى الأسواق، يصفق حوله الفساق، ولا نعرف الجمال تسأل فيه الآراء، وتعرض فيه المرأة كما تعرض العجماء

عبد الوهاب عزام

الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

« وكيف يُشعبُ صدعُ الحبِّ فى كَبدى ». كيف يُشعبُ صدعُ الحب ؟

لَعمْرى مارأيتُ الجمالَ مرةً إلا كان عندى هو الألمَ فى أجمل صُوره وأبدعها؛ أُرانى مخلوقاً بجُرحٍ فى القلب ؟

ولا تكونُ المرأةُ جميلةً فى عينى إلا إذا أحسستُ حين أنظرُ اليها — أن فى نفسى شيئاً قد عرفها، وأن فى عينيها لحظاتٍ موجَّهة إلىَّ، وإن لم تنظر هى إلىّ

فاثباتُ الجمال نفسَه لعينى، أن يُثبتَ صداقتَه لروحى باللمْحة التى تدلّ وتتكلم؛ تدلّ نفسى وتتكلم فى قلبى

***

كنت أجلس فى (اسكندرية) بين الضُّحى والظهر فى مكان على شاطىء البحر، ومعى صديق الأستاذ (ح) من أفاضل رجال السلك السياسى، وهو كاتب من ذوى الرأى، له أدبٌ غضٌ ونوادرُ وظرائفُ؛ وفى قلبه إيمانٌ لا أعرف مثله فى مثله قد بلغ ماشاء اللهُ قوة وتمكنا، حتى لأحسبُ أنه رجل من أولياء الله قد عوقب فحكم عليه أن يكون محامياً، ثم زيد فى الحكم فجعل قاضياً، ثم ضوعفت العقوبة فجعل سياسياً . . .

وهذا المكان ينقلب فى الليل مسرحاً ومرقصاً ومابينهما... فيتناوَى فيه الجمالُ والحب، ويعرض الشيطانُ مصنوعاتِه فى الهزْل والرقص والغناء، فاذا دخلتَه فى النهار رأيتَ نور النهار كأنه يغسله ويغسلك معه؛ فتُحسُّ للنور هناك عملاً فى نفسك

وتُرى المكانَ صدْراً من النهار كأنه نائم بعد سهر الليل، فما تجيئه من ساعةٍ بين الصبح والظهر إلا وجدتَه ساكناً هادئاً كالجسم المستثقل نوماً، ولهذا كنت كثيراً ما أكتب فيه، بل لا أذهب اليه إلا للكتابة. فاذا كان الظهر أقبل نساءُ المسرح ومعهن من يطارحهن الأناشيدَ والألحانَا، ومن يثقفهن فى الرقص، ومن يُروِّيهن ما يمثلْن، إلى غير ذلك مما ابتلتهن به الحياة لتساقطَ عليهن الليالىَ بالموت ليلة بعد ليلة

وكن إذا جئن ورأينني على تلك الحال من الكتابة والتفكير ، فينصرفن إلى شأنهن ، إلا واحدة كانت أجملهن . وأكثر هؤلاء المسكينات يظهرن لعين المتأمل ، كأن المرأة منهن مثلُ العنز التي كسر أحدُ قرنيها ، فهي تحمل على رأسها علامةَ الضعف والذلة والنقص ، ولو أن امرأة تتبدد حيناً فلا تكون شيئاً ، وتجتمع حيناً فتكون مرة شيئاً مقلوباً ، وأخرى شكلاً ناقصاً ، وتارة هيئة مشوهة لكانت هي كل امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتي يمشين في المسرات إلى المخاوف ، ويمشين مقدمات الموت ، ويجدن في المال معنى الفقر ، ويتلقين الكرامةَ فيها الاستهزاء ، ثم لا يعرفن شاباً ولا رجلاً إلا وقعت عليهن من أجله لعنة أبٍ أو أم أو زوجة

* * *

وتلك الواحدةُ التي أومأتُ إليها كانت حزينةً متسلِّبةً(١) فكأنما جذبها حزنُها إليّ ، وكانت مفكرة فكأنما هداها إليّ فكرها ، وكانت جميلة فدلّها عليّ الحب ، وما أدري والله أيُّ نفسينا بدأتْ فقالت للأخرى أهلاً ... ورأيتُها لا تصرف نظرها عني إلا لتردَّه إليّ ثم لا تردُّه إلا لتصرفه ، ثم رأيتها قد جال بها الغزلُ جولةً في معركته ... فتشاغلتُ عنها لا أُريها أني أنا الخصمُ الآخر في المعركة ...

بَيْدَ أني جعلتُ آخذُها في مطارح النظر وأتأملها خلسةً بعد خلسة في ثوبها الحريريّ الأسود ، فاذا هو يَشُبُّ لونَها(٢) فيجعلُه يتلألأ ، ويُظهر وجهَها بلون البدر في تمّه ، ويُبديه لعينيّ أرقَّ من الورد تحت نور الفجر

ورأيت لها وجهاً فيه المرأةُ كلُّها باختصار ، يُشرق على جسم بضٍّ ألْيَنَ من خَمْل النَّمام ، تَعْرِضُ فيه الأنوثةُ فنَّها الكامل ؛ فلو خُلق الدلالُ امرأةً لكانتْها

وتلوح للرائي من بعيد كأنها وضعت في فمها (زرّ ورد) أحمرُ منفتحاً على نفسه . شفتان تكادُ ابتسامتُهما تكون نداءً لشفتيْ محب ظمآن

أما عيناها فما رأيتُ مثلَهما عينيْ امرأةٍ ولا ظَبْيةٍ ؛ سوادُهما أشدُّ سواداً من عيون الظِّباء ؛ وقد خُلقتا في هيئة

(١) يقال تسلبت المرأة إذا أحدت ولبست ثياب الحداد
(٢) أي يزيده ويظهره ويجعله أحفل بالجمال

تثبت وجودَ السِّحرِ وفعلَه في النفس ؛ فيهما القوةُ الواثقةُ أنها النافذةُ الأمر ، يمازجُها حنانٌ أكثرُ مما في صدر أمٍّ على طفلها . وتمامُ الملاحة أنهما بهذا التكحيل ، في هذه الهيئة ، في هذا الوجه القمريّ

يا خالق هاتين العينين ! سبحانك سبحانك !

* * *

قال الراوي :

وأتثاقلُ عنها أياماً ، وطال ذلك مني وشقّ عليها ، وكأني صغّرتُ إليها نفسَها ، وأرهقتُها بمعنى الخضوع ، بَيْدَ أن كبرياءها التي أبتْ لها أن تَقدم ، أبت عليها كذلك أن تنهزم

وأنا على كل أحوالي إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشي العطرَ يكون متضوِّعاً في الهواء ، لا أنا أستطيع أن أمسَّه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذتَ مني . ثم لا تدفعني إليه إلا فطرةُ الشعر والإحساس الروحاني دون فطرة الشر والحيوانية(١)، ومتى أحسستُ جمالَ المرأة أحسستُ فيه بمعنى أكبرَ من المرأة . أكبرَ منها ؛ غير أنه هو منها

قال الراوي :

فإني لجالسٌ ذاتَ يوم وقد أقبلتُ على شأني من الكتابة وبإزائي فتى ريّقُ الشباب في العمر الذي ترى فيه الأعين بالحاسة والعاطفة أكثرَ مما ترى بالعقل والبصيرة ، ناعمٌ أملدُ تمَّ شبابه ولم تتمَّ قوته كأنما نكصتْ الرجولةُ عنه إذ وافته فلم تجده رجلا .... أو تلك هي شيمةُ أهل الظرف والقصف من شبان اليوم ، ترى الواحد منهم فتعرفُ التخنّثَ في ثيابه أكثر مما تعرفه في جسمه ، وتأبى الطبيعةُ عليه أن يكون أنثى فيجاهدُ ليكون ضرباً من الأنثى .... – إني لجالسٌ إذ وافت الحسناء فأومأتْ إلى الفتى بتحيتها ، ثم ذهبت فاعتلتْ المنصّةَ مع الباقيات ، ورقصت فأحسنت ما شاءت ، وكأن في رقصها تعبيراً عن أهواء ونزعات تريد إثارتها في رجل ما .... فقلت لصاحبنا الأستاذ (ح) : إن كلمة الرقص إنما هي استعارة على مثل هذا كما يستعيرون كلمة الحب لجمع المال . ولا رقص ولا حب إلا لفجور وطمع

(١) بسطنا هذا المعنى في المقدمة الثانية لكتابنا « أوراق الورد » وفي مواضع كثيرة من هذا الكتاب فلم نتوسع فيه هنا

ثم إنها فرغت من شأنها فرّت تهادى حتى جاءت فجلست إلى الفتى . . . . فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألمّ بما في نفسها : أتراها جعلته ههنا محطة . . . ؟

قال الراوى : أما أنا فقلت في نفسي لقد جاء الموضوع . . . . وإنى لفي حاجة أشد الحاجة إلى مقالة من المكحولات ؛ فتفرغتُ لها أنظر ماذا تصنع ، وأنا أعلم أن مثل هذه قليلاً ما يكون لها فكرٌ أو فلسفة ؛ غير أن الفكر والفلسفة والمعانى كلها تكون في نظرها وابتساماتها وعلى جسمها كله

* * *

وكان فتاها قد وضع طربوشه على يده ؛ فقد انتهينا إلى عهد رجع حكمُ الطربوش فيه على رأس الشاب الجميل ، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة . . . . فأسفر ذاك من طربوشه وأسفرت هذه من نقابها . قال الراوى : فما جلستْ إلى الفتى حتى أدنتْ رأسها من الطربوش ، فاستنامتْ إليه ، فألصقت به خدّها . . . .

ثم التفتت إلينا التفاتة الخِشْف المذعور استروح السَّبع[1] ووجد مقدّماته في الهواء ، ثم أرخت عينيها في حياء لا يستحى . . . .

وأنشأت تتكلم وهي في ذلك تسارقنا النظر كأن في ناحيتنا بعضَ معانى كلامها . . . .

ثم لا أدرى ما الذى تضاحكتْ له ، غير أن ضحكتها انشقتْ نصفين رأينا نحن أجملهما في ثغرها . . . .

ثم تزعزعتْ في كرسيها كأنما تَهُمُّ أن تنقلب لتمتدّ إليها يدٌ فتمسكها أن تنقلب . . . .

ثم تساندتْ على نفسها كالمريضة الناعمة تتناهضُ من فراشها فيكاد يئنّ بعضها من بعضها ، وقامت فمشت ، فحاذتنا ، وتجاوزتنا غيرَ بعيد ، ثم رجعت إلى موضعها متكسرةً متخاذلةً كأن فيها قوة تعلنُ أنها انتهت . . . .

* * *

قال الراوى :

ونظرتُ إليها نظرةَ حزنٍ ، فتغضّبتْ واغتاظتْ وشاجرتْ هذه النظرةَ من عينيها الدّعجاوَينْ بنظرات متهكمة لا أدرى أهي توبخنا بها ، أم تتهمنا بأننا أخذنا من حسنها مجّاناً . . . .

فقلت للأستاذ (ح) ، وأنا أجْهَرُ بالكلام ليَبْلُغها :

أما ترى أن الدنيا قد انتكستْ في انتكاسها ، وأن الدهر قد فسد في فساده ، وأن البلاء قد ضوعف على الناس ، وأن بقية من الخير كانت في الشرّ القديم فانتزعت ؟

قال : وهل كان في الشر القديم بقيةُ خير وليس مثلُها في الشر الحديث ؟

قلت : ههنا في هذا المسرح قِيَانٌ لو كانت إحداهن . . . في الزمن القديم لتنافس في شرائها الملوكُ والأمراء وسَراةُ الناس وأعيانهم ، فكان لها في عمارة الزمن صونٌ وكرامة ، وتتقلّب في القصور فتجعل لها القصورُ حرمةً تمنعها ابتذالَ فنها لكل من يدفع خمسة قروش ، حتى لرُذّال الناس وغوغائهم وسفلتهم ؛ ثم هي حين يُدبرُ شبابها تكون في دار مولاها حميلةً على كرَم يحملها ، وعلى مروءة تعيش بها

وقديماً أخذت سلاّمةُ الزرقاء في قُبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم تبلغ ألفيْ جنيه . فهل تأخذ القَينةُ من هؤلاء إلا دَخينةَ عليهمن[1] . . . ؟

قال الأستاذ (ح) : ما أبعدكَ يا أخى عن (بورصة) القُبلة وأسعارها : . . . ولكن ما خبرُ اللؤلؤتين ؟

قال الراوى : كانتْ سلاّمةُ هذه جاريةً لابن رامين[2] وكانت من الجمال بحيث قيل في وصفها : كأن الشمس طالعةٌ من بين رأسها وكتفيها ؛ فاستأذن عليها في مجلس غنائها الصيرفيُّ الملقب بالماجن ، فلما أذنت له دخل فألقى بين يديها ، ثم أدخل يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين وقال : انظرى يا زرقاء جُعِلتُ فداك ، ثم حلف إنه نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بذلك ؟ قال : أردتُ أن تعلمى

ثم غنت صوتاً وقالت : يا ماجن هبهما لى ويحك . قال : إن شئت والله فعلت ؛ قالت : قد شئت . قال : واليمين التى حلفتُ بها لازمة لى إن أخذتهما إلا بشفتيك من شفتى . . . .

* * *

(١) الخشف ولد الغزال يطلق على الذكر والأنثى ، واستروح السبع أى وجد ريحه في الهواء قبل أن يراه ، وكذلك طبيعة الحيوان

(١) الدخينة وضعناها للسيجارة وجمعها الدخائن

(٢) سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه) كما اشترى جارية أخرى يقال لها ربيحة بمائة ألف درهم .